

معالم المنهج التواصلى فى سير العلماء الإمام ابن تيمية نموذجا

Milestones of the communicative method in the
biographies of scholars:
Imam Ibn Taymiyyah as a model

جامعة الحسن الثانى الدار البيضاء المغرب،	معاذ بن عبد العزيز المؤذن* mouadelmouadine99@gmail.com
--	---

النشر: 2021 / 02 / 26

القبول: 2021 / 02 / 05

الإرسال: 2021 / 01 / 11

ملخص :

تناول هذا البحث بيان حياة الإمام ابن تيمية رحمه الله التي تحوي صورا كثيرة تظهر بلوغه درجة عالية في إتقان التواصل مع جميع الفئات، سواء مع خاصة نفسه، أو مع غيره من أقاربه -كوالدته-، أو مع طلبته، أو خصومه وغيرهم، مما يدل على أن ابن تيمية رحمه الله أصَلَ لما أصبح يسمى اليوم علم التواصل الحديث بأركان التواصل، وهي: المرسل والرسالة والمستقبل، كما قرّر مجموعة من الشرائط لإنجاح التواصل، وهي: العلم، والرفق، والصبر، واستحضار المصالح والمفاسد أثناء التواصل وضرورة اعتبار المآلات، وقد بلغ رحمه الله شأوا عظيما في خلق الإنصاف، و يتجلى هذا الخلق في أمور كثيرة، من بينها: أخذه للحق بغض النظر عن القائل به، وإنصافه للفرق المخالفة: كالرافضة والخوارج، وغير ذلك.

الكلمات المفتاح : التواصل ؛ المنهج ؛ ابن تيمية ؛ أركان التواصل ؛ شروط التواصل.

Abstract : This research deals with a statement of the life of Imam Ibn Taymiyyah, may God have mercy on him, which contains many pictures that show his high degree of mastery of communication with all groups, whether with his own personal, or with other relatives - such as his mother - or with his students, or his opponents and others, which indicates Ibn Taymiyyah, may God have mercy on him, established what has become today called the science of modern communication with the pillars of communication, which are: the sender, the message and the future. He also decided a set of tapes for the success of communication, namely: knowledge, kindness, patience, and the evocation of interests and evils during communication and the need to consider the outcomes, and he has reached his mercy God will do a great deal in the creation of equity, and this creation is evident in many things, including: taking it to the truth regardless of who said it, and doing justice to the opposing teams: such as the Rafidah and the Kharijites, and so on.

Keywords:

Communication; Curriculum; Ebn Taimia ; Pillars of communication; Terms of communication.

معاذ بن عبد العزيز المؤذن ، mouadelmouadine99@gmail.com

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا بحث بعنوان: "معالم المنهج التواصلي في سير العلماء: الإمام ابن تيمية نموذجاً". ولما كان العلماء الربانيون هم ورثة الأنبياء ونبراس الأمة وقادتها، كان التأمل في حياتهم والنظر في سيرهم ومواقفهم من أهم ما يوقف الدارس على المعالم المنهجية في تواصلهم سواء مع خاصة أنفسهم أو مع غيرهم، ومن هذا المنطلق جاء هذا البحث الموسوم ب: "معالم المنهج التواصلي في سير العلماء: الإمام ابن تيمية نموذجاً"، كمحاولة لتسليط الضوء على بعض هذه المحطات التواصلية في حياة هذا الإمام وتجليتها من خلال الوقوف على بعض النماذج والأمثلة في مجالات مختلفة -دعوية وتربوية وغير ذلك-، قصد إبراز مدى تأثيرها وتمثلها لليدي النبوي، ثم موافقتها لمناهج النبي صلى الله عليه وسلم التواصلية. وقد تحصلت خطة البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة. أما المقدمة: فأشرت فيها إلى أهمية الموضوع وعنوانه ثم خطة البحث. وأما المباحث:

فالأول منها: في التعريف بالإمام ابن تيمية رحمه الله تعريفاً مختصراً. والثاني: خصصته للمنهج التواصلي عند الإمام ابن تيمية رحمه الله من خلال كتابه: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". والثالث: في ذكر خلق الإنصاف ونماذجه عند شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. والرابع: خصصته لبعض الصور من تواصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وأما الخاتمة: فضمنته أهم نتائج البحث. وقبل أن أشرع في العرض؛ ينبغي الإشارة إلى أنه قد واجهتني بعض العراقيل والصعوبات أثناء الإعداد، لعل أهمها يكمن في صعوبة تحديد العناصر والمحاور التي تندرج تحت موضوع البحث المبحث الأول: التعريف بابن تيمية رحمه الله:

اسمه ونسبه:

هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني المعروف بابن تيمية¹.

سبب تلقيبه بابن تيمية:

¹ الوافي بالوفيات (7/ 11).

ورد في كتب التراجم في سبب تسميته بابن تيمية قولان¹:

الأول: أن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء فرأى هناك طفلة، فلما رجع وجد امرأته قد ولدت له بنتا فقال: يا تيمية يا تيمية فلقب بذلك.

والثاني: أن جده محمدا كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة فنسب إليها وعرف بها، قاله ابن النجار.

مولده ونشأته:

ولد ابن تيمية بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة، وتحول به أبوه إلى دمشق، وكانوا قد خرجوا من حران مهاجرين بسبب جور التتار، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة لعدم الدواب؛ فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا، وقدموا دمشق في أثناء سنة سبع وستين².

طلبه للعلم:

سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، وعني بالحديث، وقرأ ونسخ وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن، وأقبل على الفقه، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ثم فهمها وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالا كلياً حتى حاز فيه قصب السبق وأحكم أصول الفقه وغير ذلك، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة فأنهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه³.

وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي، وقلّ كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه، وكان الله قد خصّه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره إما بلفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره؛ فإنه لم يكن له مستعاراً بل كان له شعاراً ودثاراً⁴.

¹ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 18) بتصرف.

² الوافي بالوفيات (11/7) و الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: 597).

³ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 19).

⁴ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: 19-17).

شيوخه وتلامذته:

ذكر ابن عبد الوهاب رحمه الله في العقود الدرية¹ أن شيوخ ابن تيمية جاوزوا مائتي شيخ.
منهم:

ابن عبد الدائم وابن أبي اليسر والكمال ابن عبد وابن أبي الخير وابن الصيرفي والشيخ شمس الدين والقاسم الإربلي وابن علان وخلق كثير.²
وأما تلاميذه فكثيرون، منهم:

الذهبي والبرزالي وأبو الفتح ابن سيد الناس³، وابن القيم وابن كثير والمزي وغيرهم.

محنته:

قال الشوكاني: وقع له مع أهل عصره قلاقل وزلازل، وامتنح مرة بعد أخرى في حياته، وجرت فتن عديدة، والناس قسمان في شأنه؛ فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليه، وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية ويفوق أهل عصره ويدين بالكتاب والسنة فإنه لا بد أن يستنكره المقصرون ويقع له معهم محنة بعد محنة ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ويكون لعلمه حظ لا يكون لغيره، وهكذا حال هذا الإمام فإنه بعد موته عرف الناس مقداره واتفقت الألسن بالثناء عليه إلا من لا يعتد به وطارت مصنفاته واشتهرت مقالاته⁴.

وفاته:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وسبعمائة في ذي القعدة منها كانت وفاة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه، وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكور، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة بها وتكلم به الحراس على الأبرجة، فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم، فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه، حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئاً، ولا فتحوا كثيراً من

¹ ينظر (ص: 19).

² الوافي بالوفيات (11/7).

³ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: 492).

⁴ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (1/65).

الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة، وكان نائب السلطنة تنكر قد ذهب يتصيد في بعض الأماكن¹.

وفي آخر حياته اعتكف على قراءة القرآن، فختم القرآن مدة إقامته بالقلعة ثمانين أو إحدى وثمانين ختمة، انتهى في آخر ختمة إلى آخر اقتربت الساعة {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَعْدِنِ صُنْقٍ عِنْدَ مُلْكٍ مُّقْتَدِرٍ²}.³

مؤلفاته:

أما مصنفاته؛ فهي كثيرة جداً، وقد جمع أسماءها ابن القيم في رسالة بعنوان: (أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية) لكنه لم يأت على جميعها، وبعض ما ذكره منها مفقود لم يصل إلينا. قال الحافظ البزار رحمه الله:

وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد لأنها كثيرة جداً كباراً وصغاراً، وهي منشورة في البلدان فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه⁴.
ومن مؤلفاته المطبوعة:

- (1) الاستقامة: حققه د. محمد رشاد سالم.
- (2) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: حققه د. ناصر العقل.
- (3) الإيمان: حققه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.
- (4) التدمرية تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع: حققه د. محمد بن عودة السعوي.
- (5) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: حققه علي بن حسن وعبد العزيز بن إبراهيم وحمدان بن محمد.

(6) درء تعارض العقل والنقل: حققه د. محمد رشاد سالم.

(7) الصفدية: حققه د. محمد رشاد سالم.

(8) العبودية: حققه محمد زهير الشاويش.

¹ البداية والنهاية (14/ 132) و(14/ 138).

² سورة القمر آية: 54-55.

³ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 384) بتصرف.

⁴ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية (ص: 23).

(9) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: حققه د. محمد رشاد سالم.
(10) النبوات: حققه عبد العزيز بن صالح الطويان.

ثناء العلماء عليه:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

وقلّ أن سمع شيئا إلا حفظه، ثم اشتغل بالعلوم، وكان ذكيا كثير المحفوظ فصار إماما في التفسير وما يتعلق به عارفا بالفقه، فيقال إنه كان أعرف بفقه المذاهب من أهلها الذين كانوا في زمانه وغيره، وكان عالما باختلاف العلماء، عالما في الأصول والفروع والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما قطع في مجلس ولا تكلم معه فاضل في فن من الفنون إلا ظن أن ذلك الفن فنه، ورآه عارفا به متقنا له، وأما الحديث فكان حامل رايته حافضا له مميزا بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله متضلعا من ذلك¹.

وقال العلامة كمال الدين بن الزمكاني: كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرأي والسماع أنه لا يعرف غير ذلك الفن وحكم أن أحدا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهيبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين².

وقال بهاء الدين أبو البقاء السبكي رحمه الله لبعض من ذكر له الكلام في ابن تيمية: والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به³.

وقال عنه الذهبي:

الشيخ، الإمام، العالم، المفسر، الفقيه، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة والذكاء المفرط⁴.

وقال أيضا:

ونظر في الرجال والعلل، وصار من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين والنبالة، والذكر، والصيانة، ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف؛ حتى كان يقضي

¹ البداية والنهاية (14/ 137).

² العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ص: 23-24).

³ الرد الوافر (ص: 24).

⁴ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: 267).

منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجح ويجتهد، وحق له ذلك، فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه؛ فإنني ما رأيت أحدا أسرع انتزاعا للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشد استحضارا لمتون الأحاديث، وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند، أو إلى السنن منه؛ كأن الكتاب والسنن نصب عينيه، وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقة، وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف، وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير والتوسع فيه، يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين، وأما أصول الديانة ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة؛ فكان لا يشق فيه غباره، ولا يلحق شأوه، هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذ النفس من اللباس الجميل، والمأكّل الطيب، والراحة الدنيوية¹.

المبحث الثاني: التواصل عند ابن تيمية من خلال كتابه: "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"

1. لمحة تعريفية عن "كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر":

يقع كتاب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" في ثمانين صفحة بالنسخة التي حققها الدكتور صلاح الدين المنجد، وقد حققه قبله الشيخ محمد حامد الفقي، في كتاب جمع رسائل كثيرة²، نشر سنة 1965م.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب التي زخرت بها المكتبة الإسلامية، فهو كتاب نفيس حاول من خلاله ابن تيمية رحمه الله أن يضع أهم القواعد والضوابط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أفاد وأجاد، كما أشار إلى ذلك محقق الكتاب: صلاح الدين المنجد بقوله: (لا أعلم أحدا من العلماء فصلّ الكلام في هذا الموضوع ووضّحه كشيخ الإسلام ابن تيمية، فقد تكلم فيه كلام خبير، لا يغيب عنه من الشريعة، قرآنا وسنة، ومن آثار السلف وأعمالهم شيء، فأحسن فيما كتب وأجاد)³.

وابن تيمية رحمه الله تعالى في رسالته هاته لم يكن مفسرا وأصوليا وفقها فقط؛ بل كان عالما نفسيا يحلل أهواء النفس الإنسانية وطباعها المختلفة، وعالما اجتماعيا ينظر لمجموعة من القوانين التي تحكم الاجتماع البشري؛ وسنحاول من خلال هذا المبحث الوقوف على بعض المعالم والشروط التواصلية التي أقرها ابن تيمية في هذا الكتاب، باعتبار أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في التواصل البشري.

¹ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص: 268).

² سماه: "شذرات البلاتين من طبقات كلمات سلفنا الصالحين".

³ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 5).

2. تأصيل التواصل عند ابن تيمية من خلال كتاب "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر":

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قضية أن التواصل ضرورة بشرية موجودة بوجود الإنسان، وهو ما عبر عنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول: (كل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها، إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالى: "وَمَا أَرْبَىٰ نَفْسٍ ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ" ¹ فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك، فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر) ².

ويقول رحمه الله معلقا على الآية الكريمة: "وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْغَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" ³ ليس شرط ذلك أن يصل أمر الأمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم؛ إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة: فكيف يشترط فيما هو من توابعها؛ بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم، ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه: كان التفريط منهم لا منه ⁴.

فكان ابن تيمية رحمه الله تعالى هنا يؤصل لما أصبح يسعى اليوم في علم التواصل الحديث بأركان التواصل، وهي: المرسل والرسالة والمستقبل؛ فاشتراط في المرسل اجتهاده في إبراز الرسالة وبيانها، واشتراط في الرسالة الوقوع والحدوث ولم يشترط وصولها للمستقبل، بل المستقبل هو الذي يجب عليه أن يسعى في الوصول إليها واستيعاب كنهها.

3. بعض شروط التواصل عند ابن تيمية:

قرر ابن تيمية رحمه الله تعالى مجموعة من الشرائط لإنجاح التواصل، نذكر منها:

✓ العلم، والرفق، والصبر:

يقول رحمه الله: (فلا بد من هذه الثلاثة: العلم، والرفق، والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده) ⁵، فالعلم وسيلة إلى معرفة المعروف والمنكر، وهو أيضا وسيلة إلى فقه أحوال

¹ يوسف: 53.

² الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 66).

³ آل عمران: 104.

⁴ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 66).

⁵ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 30).

المخاطبين وظروفهم والطريقة التي يخاطبون بها، والحلم والرفق ضروريين مع الصبر لتحقيق المراد ونيل المآرب، وإلا نضر الناس من الداعي وانقلب المطلوب إلى ضده، ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله واضعاً الرفق في المرتبة الثانية بعد شرط الفقه والعلم مورداً قول أحد علماء السلف: " لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه؛ حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه " ⁽¹⁾.

ثم أنكر على من أراد التواصل مع الناس من غير فقه وحلم وصبر قائلاً: (من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقاً، من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وما يقدر عليه وما لا يقدر (...)) فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع في ذلك لله ورسوله وهو معتد في حدوده، كما انتصب كثير من أهل البدع والأهواء؛ كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والنهي والجهاد على ذلك، وكان فسادهم أعظم من صلاحه؛ ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة، وقال: «أدوا إليهم حقوقهم، وسلوا الله حقوقكم» ⁽²⁾.

✓ استحضار المصالح والمفاسد أثناء التواصل:

يقول رحمه الله: (إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاومت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد، وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمناً لتحقيق مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له؛ فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأموراً به، بل يكون محرماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته.

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالاتها على الأحكام) ⁽³⁾.

وهذا المبدأ التواصل هو مبدأ نبوي أصيل زخرت به مشاهد السيرة النبوية، ومن ذلك ما أشار إليه ابن تيمية رحمه الله تعالى بقوله: (ومن هذا الباب ترك النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن

¹. قال رحمه الله: (ذكره أبو يعلى في المعتمد في أصول الفقه).

². الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 30).

³. الترمذي: كتاب الفتن/ باب الأثرة وما جاء فيه (53/4).

⁴. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 20/19).

⁵. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 21).

أبي وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان، فيإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم، وبنفور الناس إذا سمعوا أن محمدا يقتل أصحابه¹.

وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال: قال عمر: قسم النبي صلى الله عليه وسلم قسما فقلت: يا رسول الله! والله لغير هؤلاء أحق به منهم فقال: « إِنَّهُمْ خَيْرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُجَلُّونِي، فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ »²، (يقول: إنهم يسألوني مسألة لا تصلح، فإن أعطيتهم وإلا قالوا: هو بخيل، فقال: خيروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما: الإفحاش والتبخيل، والتبخيل أشد، فأدفع الأشد بإعطائهم)³.

¹. نفسه (ص:22).

². صحيح مسلم/ باب: إعطاء من سأل بفحش (730/2).

³. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص:51).

✓ ضرورة اعتبار المآلات:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»¹ ومبيناً أن إنكار المنكر ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن: (ليكن أمرك بالمعروف بالمعروف، ونهيك عن المنكر غير منكر، وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أعظم الواجبات والمستحبات، لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد؛ بل كل ما أمر الله به فهو صلاح....)².

المبحث الثالث: نماذج من الإنصاف عند ابن تيمية - رحمه الله:

الباحث عن الإنصاف بإنصاف عند الإمام ابن تيمية، يجد نفسه أمام تراث حافل لهذا العلم، فالرجل - ومن خلال ما وقفنا عليه - قد بلغ شأواً عظيماً في هذه الصفة، ونسوق في هذه الورقات نماذج من هذه الصفة التي اتصف بها الرجل.

أ- إنصافه - رحمه الله - في أخذه للحق بغض النظر عن القائل به:

يقول شيخ الإسلام مبيناً أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن المبتغي للحق الراغب فيه، لا بد له أن يكون منصفاً في هذا الأخذ، وألا يمتنع به بغضه لقوم، أو مخالفته لهم سواء في الأصول أو الفروع من أخذ هذا الحق، يقول: (اقبلوا الحق من كل من جاء به؛ وإن كان كافراً - أو قال فاجراً - واحذروا زيغة الحكيم، قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نورا...)³.

ب - إنصافه - رحمه الله - مع الفرق المخالفة:

1- على سبيل الإجمال:

يقول - رحمه الله -: (ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم، وأحبه ووالاه، وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق، ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيُحمد ويُذم، ويُثاب ويُعاقب، ويُحب من وجه ويُبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة...)⁴.

2- على سبيل التفصيل:

¹ صحيح مسلم (69/1)، باب: بيان كون النبي عن المنكر من الإيمان.

² الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص: 17).

³ - مجموع الفتاوى (102/5).

⁴ - منهاج السنة النبوية (544/4).

واختبرت بهذا الخصوص إنصافه لفرقتين متناقضتين تماما، ومع ذلك فإنه أنصفهما معا، يقول شيخ الإسلام -متحدثا عن الخوارج والرافضة-: (وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج، ومع هذا فأهل السنة يستعملون معهم العدل والإنصاف ولا يظلمونهم؛ فإن الظلم حرام مطلقا كما تقدم، بل أهل السنة لكل طائفة من هؤلاء خير من بعضهم لبعض؛ بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض، وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون: أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضا...) ¹.

ج- إنصافه -رحمه الله- في التوسط في الحكم على المخالف:

فقد وقف موقف التوسط بين الإفراط في الحكم والتفريط فيه، وبين خطأ من أخطأ، وقال إن الصوفية مبتدعون خارجون عن السنة، وخطأ من قال إنهم أفضل الخلق بعد الأنبياء. يقول -رحمه الله- بهذا الخصوص:

(قطائفة ذمت الصوفية والتصوف، وقالوا: إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم. والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله، ففهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب...) ².

د- إنصافه -رحمه الله- في ثنائه على بعض علماء المسلمين ممن هو مخالف لهم:

فقد أثنى على كبار العلماء المخالفين له في أصول المعتقد، سواء من الأشاعرة، أو الصوفية، وأسوقها هنا نموذجين أبين فيهما موقفه منهم.

يقول -رحمه الله- عن القاضي الباقلاني-رحمه الله-: (فيه من الفضائل العظيمة، والمحاسن الكثيرة، والرد على الزنادقة والملحدين وأهل البدع، حتى إنه لم يكن في المنتسبين إلى ابن كُلاب والأشعري أجل منه، ولا أحسن كتبًا وتصنيفًا، وبسببه انتشر هذا القول) ³.

وقال عن الهروي-رحمه الله-: (أبو ذر فيه من العلم والدين والمعرفة بالحديث والسنة وانتصابه لرواية البخاري عن شيوخه الثلاثة وغير ذلك من المحاسن والفضائل ما هو معروف به...) ثم ذكر من أخذ عنه من تلاميذه وقال: ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات

¹- نفسه (157/5).

²- مجموع الفتاوى (18/11).

³- درء تعارض العقل والنقل (100/2).

مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فمهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف...¹.

ز- إنصافه -رحمه الله- في نقد كتب الفرق المخالفة:

فقد تكلم -رحمه الله- بلسان الناقد المستبصر على كتابي "قوت القلوب" لأبي طالب المكي (ت386هـ)، و"إحياء علوم الدين" للغزالي، ولم يدفعه ما فيهما من المخالفات إلى أن يردهما جملة، بل بين أن فيهما الفاسد الذي حقه الرد، والصالح الذي حقه الأخذ.

قال رحمه الله تعالى: (أما كتاب قوت القلوب، وكتاب الإحياء تبع له فيما يذكره من أعمال القلوب: مثل الصبر والشكر والحب والتوكل والتوحيد ونحو ذلك، وأبو طالب أعلم بالحديث، والأثر وكلام أهل علوم القلوب من الصوفية وغيرهم من أبي حامد الغزالي، وكلامه أسد وأجود تحقيقاً وأبعد عن البدعة مع أن في "قوت القلوب" أحاديث ضعيفة وموضوعة وأشياء كثيرة مردودة).

وأما ما في الإحياء من الكلام في "المهلكات"، مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود ومنه ما هو متنازع فيه.

و "الإحياء" فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين، وقد أنكر أئمة الدين على "أبي حامد" هذا في كتبه، وقالوا: مرضه "الشفاء" يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة؛ بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه)².

ح- إنصافه في التعامل مع من يفسقه أو يكفره:

وقد تجاوز إنصاف شيخ الإسلام لمخالفه، إلى أن بلغ درجة الإنصاف مع من رماه بالفسق والكفر، يقول في ذلك: (هذا وأنا في سعة صدر لمن يخالفني؛ فإنه وإن تعدى حدود الله في بتكفير، أو تفسيق، أو افتراء، أو عصبية جاهلية، فأنا لا أتعدى حدود الله فيه، بل أضبط ما أقوله وأفعله

¹- درء تعارض العقل والنقل (102/2).

²- مجموع الفتاوى (551-552).

وأزنه بميزان العدل وأجعله مؤتما بالكتاب الذي أنزله الله وجعله هدى للناس حاكما فيما اختلفوا فيه...¹.

ط- الثناء على الوزير نظام الملك رغم أشعريته:

يقول -رحمه الله-: (وكانت الرافضة والقرامطة - علماؤها وأمرؤها - قد استظهرت في أوائل الدولة السلجوقية حتى غلبت على الشام والعراق وأخرجت الخليفة القائم ببغداد إلى تكريت وحبسوه بها في فتنة البساسيري المشهورة فجاءت بعد ذلك السلجوقية حتى هزموهم وفتحوا الشام والعراق وقهروهم بخراسان وحجروهم بمصر، وكان في وقتهم من الوزراء مثل: " نظام الملك (...)"².

قال الشيخ عبد الرحمن المحمود: والوزير نظام الملك الذي ذكره شيخ الإسلام يعتبر من أبرز من نصر المذهب الأشعري من خلال المدارس النظامية التي أنشأها في أنحاء متفرقة من العراق وخراسان، وهو يذكر فضله فيما قام به من دعم للسلاجقة السنة في مقابل البويهيين الشيعة...³.

المبحث الرابع: صور من تواصل شيخ الإسلام ابن تيمية:

تواصل شيخ الإسلام مع الله عز وجل:

التواصل مع الله عز وجل هو أرقى أنواع التواصل على الإطلاق؛ تواصل بين العبد ومعبوده، بين المخلوق وخالقه جل وعلا، والمسلم مأمور بتحقيق هذا التواصل والحرص عليه، ولأهميته استغرقت الصلوات سائر اليوم؛ يفتح المسلم يومه بالتواصل مع الله عز وجل في صلاة الصبح ويختمه بصلاة العشاء.

والقدوة في هذا التواصل رسول الله صلى الله عليه وسلم "فقد كان طبعه الأنس بالله عز وجل وكان أنسه بالخلق عارضا رفقا ببدنه، ثم إنه كان لا يطيق الصبر مع الخلق إذا جالسهم، فإذا ضاق صدره قال أرحنا بها يا بلال"⁴.

وقد ضرب شيخ الإسلام أروع الأمثلة في التشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا النوع من التواصل، فكان رحمه الله غير آبه بما يصله من خصومه من الأذى، مادام غير حائل له عن تواصله بمعبوده سبحانه؛ حتى اشتهر عنه قوله: " ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحلت فمي معي لا تفارقتي، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة،

¹ - نفسه (245/3).

² - نفسه (18/4).

³ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة (254/3).

⁴ إحياء علوم الدين: 101/3.

وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة – أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير – ونحو هذا"¹.
وهذه حال العلماء الربانيين؛ يتحرون الكمال في التواصل مع الخالق، فإذا كان لهم ذلك وقَّعوا أيما توفيق في التواصل مع كل أنواع المخلوقين.
يقول تلميذه ابن القيم: " وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إلي وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتي. أو كلاماً قريباً من هذا.
وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحته لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر.
أو كلاماً هذا معناه"².

تواصل ابن تيمية مع طلبته وأصحابه:

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ملاذ أصحابه وملجأهم الذي يلجؤون إليه في الشدة والرخاء، وسيرته العطرة ملأى بصور تواصله مع الصحب الكرام، غير مفرق بين امرأة ورجل، ولا بين حر وعبد، ولا بين صغير وكبير، ولا غني وفقير.
فكان لزاماً على العلماء وهم ورثة الأنبياء، أن يتمثلوا بالمنهج التواصلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع محيطهم، فلا يجمل بالعالم اتخاذ حاجزٍ بينه وبين المجتمع لا ينظر إليهم إلا من على برج عالٍ، يَحْجُزُهُم عنه زجاج الشاشات أو قوة الحراس الشخصيين...
يقول ابن كثير: وفيها [يعني سنة: 714] توفيت الشيخة الصالحة العابدة الناسكة أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبي الفتح بن محمد البغدادية بظاهر القاهرة، وشهدها خلق كثير، وكانت من العالمات الفاضلات، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم على الأحمدية في مؤاخاتهم النساء والمردان، وتنكر أحوالهم وأصول أهل البدع وغيرهم، وتفعل من ذلك ما لا تقدر عليه الرجال، وقد كانت تحضر مجلس الشيخ تقي الدين بن تيمية فاستفادت منه ذلك وغيره، وقد سمعت الشيخ تقي الدين يثني عليها ويصفها بالفضيلة والعلم، ويذكر عنها أنها كانت تستحضر كثيراً من المغني أو أكثره، وأنه كان يستعد لها من كثرة مسائلها وحسن سؤالاتها وسرعة فهمها"³.

¹ الوابل الصيب من الكلم الطيب: 48.

² الوابل الصيب من الكلم الطيب: 42.

³ البداية والنهاية، 83/14.

فهذه إحدى ثمار التواصل البناء بين الشيخ وطلبته؛ أثمرت هذه المرأة التي فاقت الرجال في تحصيلها لثمرة العلم التي هي العلم والعمل، وقد ذكر ابن كثير¹ أن كثيراً من النساء ختمن عليها القرآن، ومنهن زوجه زينب، وأما عائشة زوجة الحافظ المزي.

يقول ابن القيم: "وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت بنا الظنون، وضائق بنا الأرض: أتيناها، فما هو إلا أن نراها، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحاً وقوة و يقينا وطمأنينة"². وكلام ابن القيم يذكرنا بقول علي رضي الله عنه: "رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً"³ وكذلك كان شيخ الإسلام أكثر أوقاته مع طلبته ومع ضعفة الناس وعوامهم، لا فرق عنده بين صغير وكبير.

يقول الشيخ مغلطاي بن قليج المصري: "رأيت بالقاءة، وأجازني مشافهة بها، وجنته لأودعه، وسألته الوصية والدعاء فقال لي: يا غلام، رُوينا في كتاب الترمذي بإسناد ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لابن عباس: "(يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، إذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)"⁴.

وفي ما ذكره مغلطاي يظهر لنا تواضع الشيخ، وعدم تفرقه بين الصغير والكبير في نشر العلم، ثم التواصل مع الغلام بما ينفعه متأسيا بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابن عباس رضي الله عنه.

يقول ابن القيم: "وَقَالَ لي شيخ الإسلام رضي الله عنه وَقَدْ جعلت أورد عَلَيْهِ غير إيراد بعد إيراد؛ لا تجعل قَلْبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشربها فَلَا ينضح إلا بها، وَلَكِنْ اجْعَلْهُ كالزجاجة المصمتة؛ تمر الشُّبُهَات بظاهرها وَلَا تَسْتَقِرْ فِيهَا، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وَإِلَّا فإذا أَشربت قلبك كل شُبْهَة تمر عَلَيْهَا صَارَ مَقَرًّا للشبهات أو كَمَا قَالَ"⁵

¹ نفسه، 83-83/14.

² الوابل الصيب من الكلم الطيب: 48.

³ مسند أحمد، 8/2، رقم الحديث: 654.

⁴ صحيح الجامع: 1318/2.

⁵ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، 140/1.

يقول الصفدي: "وسألته في سنة ثمانى عشرة أو سبع عشرة وسبع مائة وهو بمدرسته بالقصاعين عن قوله: تعالى {وَأُخِرَ مُتَشَابِهَاتٌ}¹ فقلت له: المعروف بين النحاة أن الجمع لا يوصف إلا بما يوصف به المفرد من الجمع بالمفرد من الوصف، فقال كذا هو؛ فقلت: ما مفرد متشابهات؟ فقال: متشابهة، فقلت: كيف تكون الآية الواحدة في نفسها متشابهة وإنما يقع التشابه بين آيتين، وكذا قوله تعالى: {فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يُفْتَتِلَانِ}²، كيف يكون الرجل الواحد يقتتل مع نفسه؟ فعدل بي من الجواب إلى الشكر، وقال هذا ذهن جيد، ولو لازمتني سنة لانتفعت"³

ثم ذكر الصفدي كلاما فيه أسئلة ومناقشات وإيرادات أوردها على الشيخ إلى أن قال: "ثم اجتمعت به بعد ذلك مرات عديدة، وكان إذا رأي قال أيش حس الإيرادات، أيش حس الأجوبة، أيش حس الشكوك، أنا أعلم أنك مثل القدر التي تغلي تقول بَقْ بَقْ بَقْ، أعلاها أسفلها، وأسفلها أعلاها، لازمني لازمني تنتفع. وكنت أحضر دروسه ويقع لي في أثناء كلامه فوائد لم أسمعها من غيره ولا وقفت عليها في كتاب، رحمه الله تعالى.

وعلى الجملة فما رأيت ولا أرى مثله في اطلاعه، وحافظته، ولقد صدَّق ما سمعنا به عن الحفاظ الأول وكانت هممه عليّة إلى الغاية لأنه كان كثيرا ما ينشد⁴:

تموت النفوس بأوصابها... ولم تشك عوداها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي... هواها إلى غير أحبابها"⁵

يقول ابن الوردي: "وكنّت اجتمعت به رحمه الله تعالى بدمشق سنة خمس عشرة وسبع مائة بمسجده بالقصاعين، وبحثت بين يديه في فقه وتفسير ونحو، فأعجبه كلامي، وقبّل وجهي، وإنّي لأرجو بركة ذلك، وحكى لي عن واقعته المشهورة في جبل كسروان، وسهرت عنده ليلة فرأيت من فتوته ومروءته ومحبته لأهل العلم، ولا سيما الغرباء منهم أمرا كثيرا، وصليت خلفه التراويح في رمضان، فرأيت على قراءته خشوعا، ورأيت على صلاته رقة حاشية تأخذ بمجامع القلوب"⁶.

تواصل شيخ الإسلام مع المخالفين:

1 آل عمران:7.

2 القصص:15.

3 الوافي بالوفيات:14/7.

4 البيتان لصُرَدَر.

5 الوافي بالوفيات:15/7.

6 تاريخ ابن الوردي:276/2.

إن تواصل الإنسان مع موافقه أمر سهل المرام، لا يتطلب كبير عناء، والإنسان إنما يظهر حلمه في تواصله مع مخالفه؛ وفي سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم كمال هذه الدرجة، ثم لورثته كل منهم بحسب سهامهم، وفي حياة شيخ الإسلام رحمه الله صور كثيرة تظهر بلوغه درجة عالية في إتقان التواصل مع خصومه، حتى قال ابن القيم: "وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه"¹.

ويقول الشيخ محمد ابن عبد الهادي: "وسمعت الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله يذكر أن السلطان لما جلسا بالشباك، أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله واستفتاه في قتل بعضهم.

قال ففهمت مقصوده وأن عنده حنقا شديدا عليهم لما خلعوه وبايعوا الملك المظفر ركن الدين ببيرس الجاشنكير.

فشرعت في مدحهم، والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من حقي ومن جهتي، وسكنت ما عنده عليهم.

قال فكان القاضي زيد الدين ابن مخلوف قاضي المالكية يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية لم نبق ممكنا في السعي فيه ولما قدر علينا عفا عنا"².

يقول ابن القيم عن شيخه: "وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوما مبشرا له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له، فنهزني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه. ونحو هذا من الكلام، فسروا به ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه"³.

وفي مناظراته لخصومه أمثلة كثيرة يضيق المقام عن إيرادها.

تواصل شيخ الإسلام مع والدته:

لقد حضَّ الإسلام على بر الوالدين والإحسان إليهم، وفي القرآن آيات كثيرة تبين طريقة مخاطبة الوالدين وواجب الابن تجاههم.

وللأم في حياة الفرد مرتبة سنية؛ فهي مصدر العاطفة، وموئل الرحمة، وفيما يأتي رسالة من شيخ الإسلام لأمه تقطر رقة وعاطفة، وحققا أن تسلك في رسائل الاعتذار.

¹ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 328/2.

² العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، 298-299.

³ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، 329-328/2.

يقول رحمه الله فيه¹:

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد بن تيمية إلى الوالدة السعيدة أقر الله عينها بنعمه وأسبغ عليها جزيل كرمه وجعلها من خيار إمامته وخدمته.

سلام الله عليكم، ورحمة الله وبركاته، فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، وهو للحمد أهل وهو على كل شيء قدير، ونسأله أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما.

كتابي إليكم عن نعم من الله عظيمة، ومنن كريمة، وآلاء جسيمة، نشكر الله عليها، ونسأله المزيد من فضله، ونعم الله كلما جاءت في نمو وازدياد، وأياديه جلت عن التعداد، وتعلمون أن مقامنا الساعة في هذه البلاد، إنما هو لأمر ضرورية، متى أهملناها فسد علينا أمر الدين والدنيا، ولسنا والله مختارين للبعد عنكم، ولو حملتنا الطيور لسرنا إليكم، ولكن الغائب عذره معه، وأنتم لو اطعتم على باطن الأمور؛ فإنكم - ولله الحمد - ما تختارون الساعة إلا ذلك، ولم نعزم على المقام والاستيطان شهرا واحدا، بل كل يوم نستخير الله لنا ولكم، وادعوا لنا بالخيرة، فنسأل الله العظيم أن يخير لنا ولكم وللمسلمين ما فيه الخيرة في خير وعافية، ومع هذا فقد فتح الله من أبواب الخير والرحمة والهداية والبركة ما لم يكن يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال، ونحن في كل وقت مهمومون بالسفر مستخرون الله سبحانه وتعالى، فلا يظن الظان أننا نؤثر على قريبكم شيئا من أمور الدنيا قط، بل ولا نؤثر من أمور الدين ما يكون قريبكم أرجح منه، ولكن تَمَّ أمور كبار نخاف الضرر الخاص والعام من إهمالها، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، والمطلوب كثرة الدعاء بالخيرة، فإن الله يعلم ولا نعلم، ويقدر ولا نقدر، وهو علام الغيوب، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " {من سعادة ابن آدم استخارته الله ورضاه بما يقسم الله له، ومن شقاوة ابن آدم: ترك استخارته الله وسخطه بما يقسم الله له} ²، والتاجر يكون مسافرا فيخاف ضياع بعض ماله، فيحتاج أن يقيم حتى يستوفيه، وما نحن فيه أمر يعجل عن الوصف، ولا حول ولا قوة إلا بالله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كثيرا كثيرا، وعلى سائر من في البيت من الكبار والصغار، وسائر الجيران، والأهل والأصحاب، واحدا واحدا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليم

¹ مجموع الفتاوى، 49-48/28.

² رواه البزار في مسنده برقم: 1097، وأبو يعلى في مسنده برقم: 701، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، 452/13، برقم: 6212.

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج

أجمل النتائج التي توصلت إليها فيما يلي:

- ✓ أن التواصل ضرورة بشرية موجودة بوجود الإنسان، وهو ما عبر عنه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ✓ أن ابن تيمية رحمه الله أصل لما أصبح يسمى اليوم في علم التواصل الحديث بأركان التواصل، وهي: المرسل والرسالة والمستقبل؛ فاشتراط في المرسل اجتهاده في إبراز الرسالة وبيانها، واشتراط في الرسالة الوقوع والحدوث ولم يشترط وصولها للمستقبل، بل المستقبل هو الذي يجب عليه أن يسعى في الوصول إليها واستيعاب كنهها.
- ✓ أن ابن تيمية رحمه الله قرر مجموعة من الشرائط لإنجاح التواصل، وهي: العلم والرفق والصبر واستحضار المصالح والمفاسد أثناء التواصل وضرورة اعتبار المآلات.
- ✓ أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد بلغ شأوا عظيما في خلق الإنصاف، وقد تجلّى هذا الخلق في:

- (1) أخذه للحق بغض النظر عن القائل به.
 - (2) إنصافه للفرق المخالفة: كالرافضة والخوارج.
 - (3) إنصافه في التوسط في الحكم على المخالف: حيث وقف موقف التوسط بين الإفراط في الحكم والتفريط فيه.
 - (4) إنصافه في الدفاع عن معتقد بعض الفرق المخالفة.
 - (5) إنصافه في ثنائه على بعض علماء المسلمين ممن هو مخالف لهم من كبار الأشاعرة والمتصوفة ونحوهم.
 - (6) إنصافه في نقد كتب الفرق المخالفة: ككلامه على "قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"إحياء علوم الدين" للغزالي وغيرهما.
 - (7) إنصافه في التعامل مع من يفسقه أو يكفره.
 - (8) ثناؤه على الوزير نظام الملك رغم أشعريته.
- والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- ✓ القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- ✓ إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة - بيروت، بدون.

- ✓ الاستقامة، تقي الدين ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود -المدينة المنورة، الطبعة الأولى 1403هـ
- ✓ أسماء مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: د. صلاح الدين المنجد، الناشر: دار الكتاب الجديد - بيروت، الطبعة: الرابعة، 1403 - 1983.
- ✓ الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، عمر بن علي بن موسى بن خليل البغدادي الأزجي البزّار، سراج الدين أبو حفص (المتوفى: 749هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الثالثة، 1400.
- ✓ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية. تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. الطبعة 1/ دار الكتاب الجديد.بيروت 1976.
- ✓ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1407 هـ - 1986 م.
- ✓ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت.
- ✓ تاريخ ابن الوردي، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي (المتوفى: 749هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
- ✓ الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، محمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد - مكة، الطبعة: الثانية، شوال 1422 هـ.
- ✓ درء تعارض العقل والنقل، تقي الدين ابن تيمية الحراني، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية 1411 هـ - 1991 م.
- ✓ الرد الوافر، محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (المتوفى: 842هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، 1393.
- ✓ سنن الترمذي. أبو عيسى الترمذي (المتوفى: 279هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف / دار الغرب الإسلامي - بيروت/ 1998 م.
- ✓ صحيح الجامع الصغير وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، نشر المكتب الإسلامي.

- ✓ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفى: 744هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار الكاتب العربي - بيروت.
- ✓ مجموع الفتاوى، تقي الدين بن تيمية الحراني، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: 1416هـ/1995م.
- ✓ مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م.
- ✓ المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، محمد فؤاد عبد الباقي/دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ✓ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيم الجوزية، نشر دار الكتب العلمية - بيروت، بدون.
- ✓ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تقي الدين ابن تيمية الحراني، تحقيق محمد، رشاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، 1406 هـ - 1986 م.
- ✓ موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن بن صالح المحمود، نشر مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى 1415هـ-1990م.
- ✓ الوابل الصيب من الكلم الطيب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، نشر دار الحديث - القاهرة الطبعة الثالثة، 1999 م.
- ✓ الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: 764هـ)، المحقق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، عام النشر: 1420هـ-2000م.